أسئلة النصر والهزيمة

الثلاثاء 23 ديسمبر 2025 01:00 م

كتب: معين الطاهر

معين الطاهر

كاتب وباحث فلسطيني

ثمـة مقـدّمات للحروب تقود إليها، وتجعل انـدلاعها حتميّاً، فاسـتمرار النكبـة والاحتلال، والحصار والاستيطان، والاجتياحات المتكرّرة، وتجاهل المجتمع الـدولي، لا يمكن أن تؤدّي جميعاً إلّا إلى الحرب والمواجهـة. وثمّـة نتائج للحرب تعكس مساراتها وتداعياتها، وتفرض وقائع ومعادلات جديـدة. وقـد رسم الخبير الاستراتيجي الصـيني صن تزو، قبل نحو أربعـة آلاف عام، خطوطها ببراعـة، "فمن يعجز عن استيعاب نتائج الحرب يفنى، بغض النظر عن قـوته". وهي معادلـة تنطبـق على طرفَي الحرب، المنتصـر إذا بـالغ وضـخّم من حجم انتصـاره، والمهزوم إذا استسـلم لهزيمته، أو لم يعترف بها، وكم من مـدّعٍ للانتصار هُزم لاحقًا، وكم من طرفٍ وُصم بالهزيمة، لكنه اسـتجمع قواه، وعاد إلى ساحات الاشـتباك أكثر قوة مما مضى! وقديماً قيل "الحربُ سجال"، ونتيجة معركةٍ لا تحسم مسار الحرب، مهما كانت قاسية.

تنطبق القاعدة الذهبية التي قالها صن تزو بالضـرورة على حرب الإبادة الجماعية التي شـنّها الاحتلال الصـهيوني على الشعب الفلسطيني في قطـاع غزّة، وتوسّـعت لتشـمل الضـفة الغربيـة، وامتـدت إلى لبنـان وسوريـة والعراق واليمن وإيران. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن الحرب بمعناهـا الشامـل لم تتوقف، وإنْ ثمـة معـارك تراجعت مؤقتاً في لبنان وغزّة وإيران واليمن، وهي مرشّـحة لأن تتطور وتتصاعـد في أكثر من جبهـة، كمـا يحـدث الآـن على جبهـات لبنـان وغزة والضـفة الغربيـة، وبوسائـل تمـتزج فيهـا المعـارك الحربيـة مـع أدوات الضـغط السياسـي والدبلوماسي، والحصار والتجويع والتهجير والاغتيالات، وصولاً إلى تجدّد الحرب واتساعها إلى مناطق أخرى في الإقليم.

تختلف معـايير النصـر والهزيمـة، وتتفـاوت الرؤى والتفسـيرات حولها، سواء على جبهتنا أم على جبهـة العـدو، وكثيراً ما تتـداخل فيها الوقائع والحقـائق الملموسـة، مع الرغبـات والآمال والعواطف، والمناورات السياسـية والمحاولات الشـعبوية لكسب الجمهور. فإذا تجاوزنا مصـطلح "النكبة" التي أصابت الشـعب الفلسطيني في عام 1948، والـذي يصوّر الهزيمـة في الحرب، فإن التأريخ اللاحق لأداء الجيوش العربية اكتفى بالحـديث عن إنجازاتها ومعاركها، مثل معركـة باب الواد والقـدس، وحصار الفالوجـة، وتجاهل عجزها وفشـلها وهزيمتها التي أدّت إلى خسارة العرب الجزء الأكبر من فلسطين، فتغلبت رغبة النظام العربي في تثبيت سلطته أمام شعوبه على مواجهة نتائج الحرب الكارثية.

وفي حرب يونيـو (1967) التي عُرفت بحرب الأيـام السـتة، خُفّف المصـطلح من هزيمـة أو نكبـة إلى "نكسـة"، وادّعى النظام السوري أنه لم يُهزم، لأن هـدف الحرب كان القضاء على الحزب الحاكم. لكن نكسـة حزيران وهزيمتنا فيها أدّت إلى انطلاقـة كبرى للمقاومـة الفلسـطينية، وتحوّلت لاحقاً إلى نصر عربي في حرب أكتوبر(19 73)، لم يعمّر طويلاً بتوقيع اتفاقات كامب ديفيد بين مصر والكيان الصهيوني، وأذنت بانتهاء الحروب العربيـة الرسـمية مع العـدو، وبـدء مرحلـة الحـل المرحلي في الثورة الفلسـطينية. وفي 1982، خرجت المقاومـة الفلسـطينية من بيروت، وسادت تقديرات بأفول مرحلتها، لتعود عبر بوابة الانتفاضة الأولى، وتشـكّل الحجارة في تلك المرحلة أسـطورة أقوى من السـلاح، إلا أن الحلم الفلسطيني بحصد نتائجها السياسية سرعان ما تلاشى على وقع اتفاق أوسلو.

تقود هـذه الشواهـد كلها إلى أن مسألة النصـر والهزيمة ليست لحظية يمكن الحكم عليها بسـهولة ما أن يتلاشـى غبار المعارك، فنبدأ في فرز المنتصر عن المهزوم، فالحرب امتدادٌ للسياسة، وشكل من أشكالها، ويجب فهم نتائجها بصورة أوسع مما خسرته أطرافها من أفراد ومعدات وأراضٍ، ويختلط ذلك مع قبول نتائجها أو رفضـها، ونشوء مراكز قوى جديـدة، وحدوث تغيرات في البنى الداخلية لأطرافها، وفي ميزان القوى المحليِ والإقليمي والدولي، ومدى تأثيره المباشر في ساحة الصراع.

ثمـة جـدل دائر حول ادعاء النصـر أو الاتهام بالهزيمـة في حرب الإبادة الجماعيـة المسـتمرّة منذ أكثر من عامين، هل قَتْل وجرح أكثر من ربع مليون غزّي، وتدمير 70% من بيوت غزة، وحصارهـا وتجويعها أهلها وتشـريدهم، واحتلال 58% من أرضـها، واجتياح بقيتها، يمكن اعتباره نصراً حققه الجيش الإسـرائيلي؟ أم أن طول مدة الحرب للمرة الأولى في تاريخ الصـراع العربي - الإسـرائيلي، وعدم تحقيق أهداف الحرب المعلنة المتمثلة بالقضاء على المقاومة، ونزع سلاحها، وإعادة تشكيل خريطة الإقليم يمثّل فشلاً كبيراً في هذه الحرب.

لم يُهزم الفلسـطينيون في غزّة في هذه الحرب التي صـمدوا فيها، ولم تُهزم المقاومة التي قاتلت فيها قتالاً أسـطورياً لم يسبق له مثيل، وما زالت تسـيطر على مناطقها وتجـدد قياداتها، وتجنّد مقاتليها، وتفرض الأمن، وتجلس على طاولة المفاوضات، على الرغم من الخسائر الكبيرة التي طاولتها خلال الحرب الضـروس. وبفضل طوفان الأقصـى، تراجع التطبيع مع الكيان الصـهيوني، وعادت القضـية الفلسطينية إلى واجهة الأحـداث، بعـد أن كانت على حافـة التصـفية. أما حرب الإبادة، وما رافقها من قتل وتـدمير وتجويع، فالجيش الإسـرائيلي هو المسؤول الوحيد عنها، ومن يقول بغير ذلك يعفي العدو من المحاسبة على جرائمه، ويروج لروايته.

لم تُهزم المقاومـة، فالمقاومـة، في تجارب الشـعوب كلها، لا تُهزم إلا عندما يُقضـى على فكرتها، أو تُخمَد جذوتها وتستسـلم، قد تتراجع قليلاً، وقـد تُغيّر وسائلهـا وأدواتهـا، وقـد تنتقل الرايـة من يـد إلى أخرى. وفي الوقت نفسه، يصـعب القول بانتصارها أيضاً؛ يمكن ملء مجلـدات عن صمودها وقتالها الأسـطوري، وعن إعدادٍ لم يكلّ ولم يملّ للمعركة استمرّ سنوات، وعن مفاجأتها العدو، وأكثر من ذلك، لكن لا يمكن للانتصار أن يترافق مع مشـروع ترامب، ولا مع تقسـيم غزّة، أو إخضاعها لوصاية وانتداب، وإرسال قوات دولية لفرض الأمن فيها، مع الحديث عن نزع السـلاح وتدمير الأنفاق، واسـتمرار فصل الضـفة الغربية عن قطاع غزّة، والعجز عن الإفراج عن قيادات الأسرى ورموزهم، واسترداد جثامين الشهداء الفلسطينيين كلها.

ثمّة مثال أظن أنه يشـكل هاجساً في مخيال بنيامين نتنياهو، وهو وضع بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية، ومصير زعيمها في الحرب ورئيس وزرائها ونسـتون تشـرشل الذي لم يتمكّن من قراءة ما أفرزته الحرب من قوى دولية صاعدة، ومتغيرات في الوضع العالمي، فكان أن فشل في الحفاظ على منصبه، وتراجع نفوذ الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس، وهو ما عبّر عنه الرئيس الأميركي دونالد ترامب، عندما خـاطب نتنياهو بقوله "قـد تكسب المعركـة لكنك تخسـر العالم"، في إشارة إلى حجم التضامن الـدولي مع الشـعب الفلسـطيني في مواجهة حرب الإبادة، وإلى ما يمكن أن تحقّقه سياسات نتنياهو وحروبه من ردّات فعل عربية وإقليمية ودولية في المستقبل.

على الرغم من قسوة الحرب وضراوتها، إلا أنها تفتح باب الأمل أمام الشعب الفلسطيني، إذا استوعب نتائجها، وعزّز صموده ووحدته، وتمسّك بعدالة قضيته، وبحقه في مقاومة الاحتلال بالأشكال الممكنة، وإذا تمكن من تصعيد النضال ضد الاحتلال والأبارتهايد والتمييز العنصري، وعزل إسـرائيل في العالم كله، وإيقاف مصادر دعمها، لتصـبح كلها حلقات مركزية لنضاله، تقف جنباً إلى جنب مع تعزيز صموده ونضاله في الأرض المحتلة، فإن ساعات الخلاص والتحرّر تصبح أقرب من أي وقت مضى.

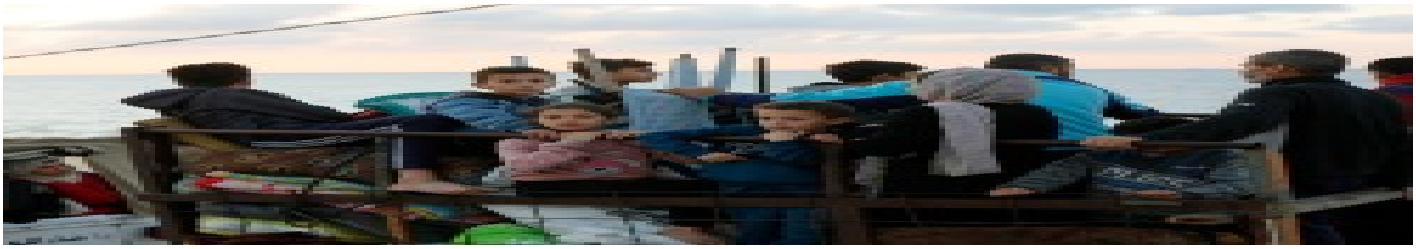

الأونروا: الضفة الغربية على أعتاب أسوأ أزمة نزوح منذ 1967
الأحد 28 سبتمبر 2025 12:31 م

مقالات متعلقة

مخاوف اللا مستقبل تخيم على الشارع في مصر

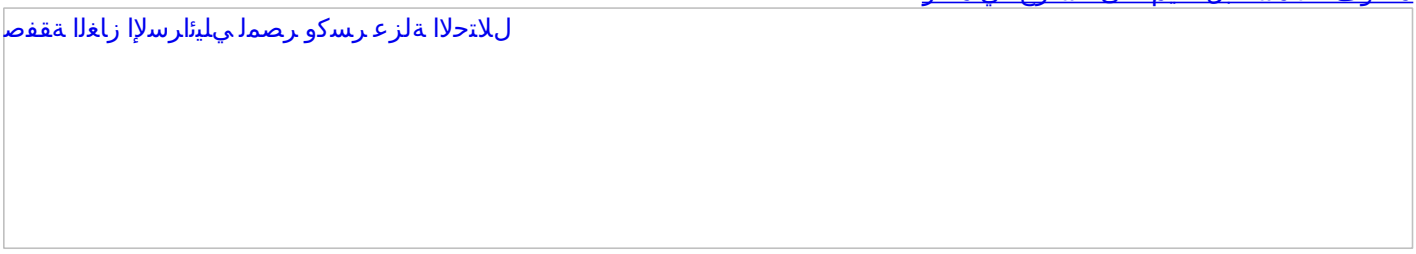

صفقة الغاز الإسرائيلي لمصر وكسر عزلة الاحتلال

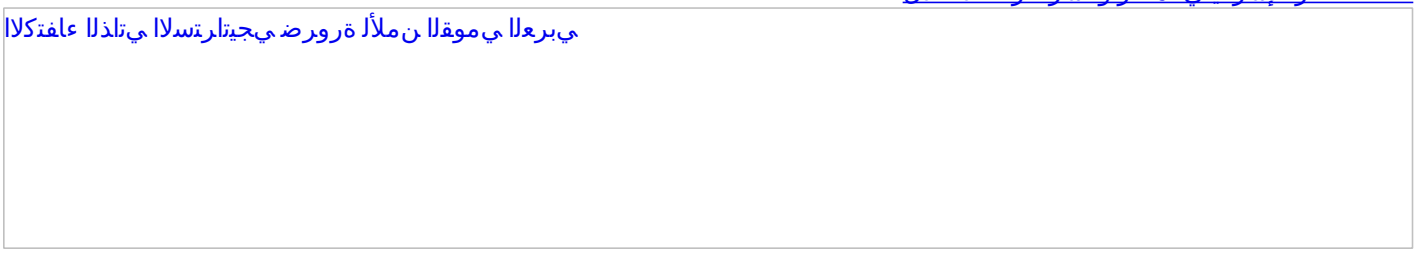

الاكتفاء الذاتي الاستراتيجي ضرورة للأمن القومي العربي

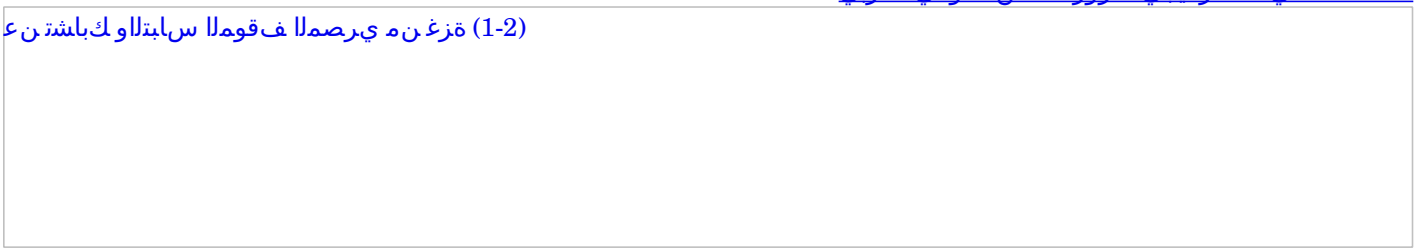

عن تشابك والتباس الموقف المصري من غزة (1-2)

- التكنولوجيا
- دعوة
- التنمية البشرية
- الأسرة
- ميديا

- الأخبار
- المقالات
- تقارير
- الرياضة
- تراث
- حقوق وحريات

-
-
-
-
-
-

إشترك أدخل بريدك الإلكتروني

جميع الحقوق محفوظة لموقع نافذة مصر 2025 ©